الدستور فى شعر شوقى

بمناسبة إزاحة الستار عن تمثاله

للأستاذ أحمد محمد الحوفى

— ١ —

كانت الدعوة إلى الدستور قد قويت ودوّت فى أوائل هذا القرن ، وزعيمها مصطفى كامل باشا وكان مصطفى لا يفتأ يدعو إلى الجلاء وإلى الدستور لأنه وسيلة الحكم الصالح ، فقد كتب فى اللواء فى ٥ أكتوبر سنة ١٩٠٠ مقالاً بعنوان « الحكومة والأمة فى مصر » ذكر فيه وعد لورد دوفرين باسم حكومته أن يؤسس فى مصر مجلس نيابى ، وإخلاف الحكومة البريطانية وعدها كإخلافها وعود جلائها

ودعا إلى الدستور فى خطبته فى العيد المئوى لمحمد على يوم ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ ، ومما قاله : « أين ذلك الدستور الذي يلجم الحكومة بلجام من حديد ، ويهب الأمة حرية الرأى والفكر وحق المراقبة على أعمال الحكام وسن القوانين والشرائع ومناقشة الوزارة عن الصغائر والكبائر ...

لعمرى إن مايسميه المحتلون وأنصارهم بالدستور لهو الفوضى فى لباس النظام ، والاختلال فى قالب الاحتلال ، وإلا فأين الضمانة التى تطمئن لها القلوب والخواطر ؟ أين مجلس النواب المصرى الذى يقف فى وجه كل طامع ويرد كل ظالم ؟ أين ذلك المجلس الذى وعدت به بريطانيا على لسان اللورد دوفرين ؟ »

وقد كان لخطبته هذه دوى فى مصر ، وأثر فى المقيمين بها من الأوروبيين ، وكانت من أعظم دروسه الوطنية ، وعلقت عليها الأهرام بقلم الشاعر الكبير خليل مطران بك ، والبصير ، وجريدة الفارد الكسندرى تعليقاً يشف منه الإعجاب والحماسة

ولشوقى بمصطفى كامل صلات ، فقد كان من كتاب اللواء ، ومن أصدق أصدقاء الزعيم الشاب وأعظمهم إعجاباً به ، وكان مصطفى يبادله الحب والإعجاب ، فقد وصف شعره بأنه الغدير الصافى فى ألفاف الغاب يسقى الأرض ولا يبصره الناظرون ، وخصص لقصائده أسمى مكان فى اللواء ، وفى ذلك يقول شوقى :

قد كنت تهتف فى الورى بقصائدى
وتحل فوق النيرين مكانى

وكتب مصطفى إلى صديقه محمد بك فريد من أوروبا : « وإذا قابلت شوقى بك فقبله لى مرتين ، وقل له أن يرسل لى ما طبع من ديوانه مع صورته وأعطه عنوانى »

وشوقى يقرر أنه شارك مصطفى فى البعث والدعوة إلى الاستقلال والحرية بقوله :

أتذكر قبل هذا الجيل جيلاً سهرنا عن معلمهم وناما
سهار الحق بغضنا إليهم شكيم القيصرية واللجاما
لواؤك كان يسقيهم بجام وكان الشعر بين يدى جاما

وقد اشترك معه فى الاحتفال بالعيد المئوى لولاية محمد على بقصيدته الخالدة (محمد على) ورثاه لما مات بقصيدة من عيون المراثى العربية ، ثم ذكره ، وفى آخر ذكرى يقول :

يا أخا النفس فى الصبا لذة الروح فى الصغر
وخليلاً ذخرته لم يقوم بمدخر

— ٢ —

على أنه قد درس فى مصر طرفاً من القانون فى مدرسة الحقوق قبل أن يتحول إلى قلم الترجمة ، ثم أتم دراسة الحقوق فى فرنسا ، وما من شك فى أنه وقف على آراء علماء الاجتماع والقانون والسياسة فى خير نظم الحكم ، وما من شك فى أنه تأثر بميولهم إلى حكم الشورى ، على أنه شاهد هناك صولة الدستور وفضل الشورى وسلطان الشعب ، فطمح إلى ما طمح إليه غيره من المصريين الدارسين فى أوروبا أن يكون لمصر دستور ، وأن يصرف الشعب أمره بنفسه ، وأن ينجاب عن سماء الإسلام قتام الحكم المطلق

ثم إنه مولع بالتاريخ وتمجيد الماضى ، ويعلم أن الشورى نظام الحكم فى الإسلام ، وأن الخلفاء الراشدين تسلموا مقاليد الحكم بالانتخاب ، فهو يجمع هذا إلى مايتجدد أمامه فى الحاضر فى الدول الراقية فلا يرى مندوحة من الميل إلى الشورى ، والدعوة إليها والاستمساك بها

كان ذلك وشوقي في ريعان شبابه ، فدعا إلى الدستور وهو شاعر الأمير تقيده الوظيفة ، وتحد من جريانه في تيار الثوران على الحكم المطلق . فلما نشبت الحرب الماضية نفى ، لأن الغاصبين أيقنوا خطورة شعره في التأليب عليهم والتنفير منهم ، فأميره مبعد عن ملكه ، ومصر كلها برمة بقيود الحماية ، وتركيا في غير صف انجلترا ، وشوقي شاعر الأمير ، وروحه مصرى وتركى ، وشعره يوقظ الغفلى ، ويشدو به الصبية والكهول

ثم ألقى الله على العالم أمنه وسكينته ، وعاد شوقي إلى مصر يغرد بالمجد ، ويرجّع بالدعوة إلى الدستور في مناسبات شتى في عهد الملك فؤاد ، وهو في ترجيعه حر يصور عواطف الشعب آنا ، ويرشده آنا ، لا تلجمه وظيفة ولا تثنيه رهبة ؛ فقد أفاق الشعب كله واستفاد لزعيمه سعد ، وثار ثورته يشرى حريته ودستوره واستقلاله ، وشوقي مغتبط يحدو للسائرين أو الطائرين إلى مثلهم العليا ؛ ولم يجاره شاعر في حماسة دعوته ، ولا في تكرار صيحته ، ولا في بلاغته وجرأته ، ثم لم يدانه شاعر في جلال الصور التي صور الدستور بها ، أو في مهارة الربط بين الفكرة التي يدعو لها والمناسبة التي يهتبلها

ولعل في هذا البحث بلاغاً لحساده الذين زعموا أنه لا يمثل عصره ، ولم يتحدث بلسان شعبه ، ولم يصور عواطف معاصريه وميولهم ، وإن هم إلا واهمون أو ظالمون ، فإن شعره ثبت مفصل لما اضطرب من أحداث ، وما اشتجر من آراء ونزعات ، وقلما حدث حدث إلا جلجل فيه شوقي بشعره الملتهب ، فمضد الحق ، وسند الشعب ، ورسم الصوى للحيرى

وشعره في الدستور والشورى وفضلهما وما يتصل بهما كثير متنوع الصور ، جاشت به نفسه فنفس عنها ، واستدعته عاطفته فاستجاب لها ، وإنها لعاطفة صادقة لا مجاراة فيها ولا مَيْن ، ولو جارى لأقل فأشار في معرض أو معرضين ، ولكنه طرق الدستور وحكم الشورى في أكثر من عشرين موضعاً من ديوانه ، وفي بعضها يخلق المناسبة خلقاً ، ليمجد الدستور ونظمه ، وليس هذا شأن المجارى . وعاطفته مع صدقها حارة عالية الدرجة نبيلة تثير عواطفنا وإعجابنا ، فلا مرد إذن لأقاويل خصومه المتنقصين قدره إلا أنهم نفسوا عليه سلطانه ومكانه وبيانه ، فاتهموه في موضع الاقتدار ، فكانوا كمكر النهار ، أو المارى في حرارة النار

ومن الوفاء له أن نسوق هنا طرفاً من شعره نحيي به ذكرى شاعر العصر ، المساهم في مجد مصر ، ونحيي به الدستور في وقت تمتحن فيه دساتير الأمم ، فتجاهد الحكم المطلق

وإن من يقدر الظروف التي تغنى فيها شوقي بالدستور ليجد حرجها ، ويحس أشواكها ، فكيف سلم من معاطبها شوقي ؟ وكيف لبق فأرضي نفسه وصور آمال الشعب ثم لم يجمح به قلمه أو كلمه ؟

الحق أنه كان يروض الألفاظ حتى لا تثير سخطاً ، ويروز المعاني ويصطفيها حتى لا يحس منها معارض بجفوة أو نبوة ، وليس من السهولة أن تحبب إلى معارض ما يكره وأنت لم تشعره بغضاضة الرجمة ، أو لم توقظ في نفسه نوازع العناد . وهذه درجة علية من اللباقة والكياسة والحذاقة

— ٣ —

هلل شوقي بالدستور العثماني واحتفى به ، وقصر عليه قصيدة كاملة إثر صدوره عام ١٩٠٨ إذ زف في بعض أبياتها البشرى إلى الترك وإلى الخاضعين لهم ، ولعله استشف أن الدستور سينتظم مصر وغيرها ، ففي رأيه أن الخلافة كانت تعاني الضعف وتقاسي الانحلال فجاء الدستور سياجاً لها وقوة ، وكانت متداعية الأركان فحيطت بالشورى ونادى الشورى

والدستور الذي أصدره السلطان عبد الحميد نعمة على الشعب جليلة كجلال الخليفة ، صافية الحواشي ، إذ لم ترق لها دماء أو تلابسها جرائم ، ومن عجب أن يرغب الناس عن الشورى وقد شرعها الله وأوصى بها نبيه

وحيثما نظرت رأيت سمات الفرح ، فإن الشعب الصادى إلى الدستور والحكم النيابي ينقع اليوم بالشورى صداه ، وكل فرد في الأمة يشعر بالعزة والعظمة والجاه أنْ صار له صوت في سياسة الوطن ورأى

بشرى البرية قاصيها ودانيها ... حاط الخلافة بالدستور حاميها
لما رآها بلا ركن تداركها ... بعد الخليفة بالشورى ونادِيها
أسدى إلينا أمير المؤمنين يداً ... جلت كما جل في الأملاك مسديها

بيضاء ما شابها للأرياء دم ولا تكدر بالآثام صافيها
وإنما هي شورى الله جاء بها كتابه الحق يعليها ويغليها
أما ترى الملك في عرس وفي فرح بدولة الرأي والشورى وأهليها
لما استعدلها الأقوام جئت بها كالماء عند غليل النفس صاديها
فضل لذاتك في أعناقنا ويد عند الرعية من أسنى أياديها
خلافة الله جر الذيل حاضرها بما منحت وهز العطف باديها
طارت قناها سروراً عن مراكزها
وألقت الغمد إعجاباً مواضيها

— ٤ —

وينتهز الفرصة في إعلان رأيه في مشروع ٢٧ فبراير فيخاطب الملك فؤاداً ناصحاً له أن يوطد ملكه على دعائم من العلم والأدب والعدل والشورى :

فؤاد حليت جيد النيل مأثرة حذوت في صوغها آباءك النجبا
ما زلت في السلم تغزو كل معضلة
بالحلم حتى اقتحمت المعقل الأشبا
إن سرك الملك تبنيه على أسس فاستنهض البانيين العلم والأدبا
وارفع له من حبال الحق قاعدة ومد من سبب الشورى له طنبا

— ٥ —

ويلتفت في قصيدته (الأزهر) التفاتة بارعة فيقرن إصلاح الأزهر بإصدار الدستور ، أليس بإصلاح الأزهر يستقيم الدين والدنيا ؟ وبالدستور تنهض الأمة وتسلك طرقها صعداً ؟ أليس الأزهر فخار مصر المسلمة والدستور شعار مصر الناهضة ؟

الله أكبر يا ابن إسماعيل لم تترك لصناع المآثر مفخرا
بالأمس تنهض مصر في دستورها
واليـــوم تنهض للسماك الأزهرا

(البقية في العدد القادم)

احمد محمد الحوفي
المدرس بالسعيدية الثانوية

صدر اليوم

أساطير الحب والجمال عند الإغريق

للأستاذ

دريني خشبة

وهو مطبوع طبعاً أنيقاً ويحتوي على ٤٠٠ صحيفة

وثمنه ٣٠ قرشا

يطلب من إدارة الرسالة

إدارة الرسالة تقدم

المجلد الثاني من

وحي الرسالة

وهو كالمجلد الأول في وضعه وطبعه

وطرافته وأناقته

يطلب من إدارة الرسالة ومن جميع المكاتب الشهيرة

وثمنه أربعون قرشا عدا أجرة البريد